على هامش مقال « شباب غفل »

من لغو الصيف

الثقافة المغربية

العدد 13 - 23 جمادى الأولى عام 1357 - موافق 21 يوليوز سنة 1938

كانت الليلة ليلة صيف حارة، هجر النوم فيها مقلتي، ففتحت نوافذ غرفتي، واضطجعت مستريحا على مقعد طويل بين رفوف كتبي أطالع بل أتصفح مجلات على ضوء ضئيل لأقتل الوقت منتظرا هبوب نسيم الهزيع الأخير من الليل، وأخيرا صرت بين حالة النائم واليقظ، أنتبه تارة وتارة تأخذني سنة خفيفة ، فأهيم في عالم الأحلام اللذيذة. وبينما أنا في هذا السكون العميق إذ نفذ إلى أذني حفيف أوراق، فظننت أنه فار جاء زائرا خزانتي في هذه الليلة، فلم أعر له بالا، ولكن سرعان ما تعاظم الأمر، وارتجت الرفوف، وانهارت الكتب على الأرض، وصارت تقفز وتطير وتتصادم، فدخلني رعب عظيم، ثم تضاعف ذهولي وكدت أفقد شعوري لما سمعت أصواتا ترتفع من طيات الكتب: « صاحبي ... نعم ... صاحبي أحسن من صاحبك ... الرافعي ... العقاد ... » ولولا هذه الأصوات السحرية الموسيقية وهذا الحوار اللطيف وهذا الجدال الأدبي الممتع لخرجت فارا، ولصرت أصيح مستغيثا، لكنني استجمعت قواي، وأمعنت النظر، فإذا بالثورة القائمة هى بين كتب العقاد والرافعي وأعداد أخيرة من « الرسالة » بها مقالات لأنصارهما وخصومهما؛ ثم صار الضجيج يكثر، والملاكمة تشتد، وإذا برأس ضخم يخرج من كتاب « في الأدب الجاهلي » يصيح قائلا: « يمكن أن يكون الرافعي أحسن من العقاد، ويستطيع العقاد أن يكون أحسن من الرافعي، وليس الرافعي أحسن من العقاد، ولا العقاد أحسن من الرافعي، على أننا نستطيع أن نتساءل هل هنك عقاد وهل هناك رافعي، ونستطيع أن نتساءل هل هذه

الكتب التي ننسبها لهما هى صكك ثابتة، أم هى كالمعلقات منحولة ... »

ثم أطلت رؤوس أخرى من كتب أخرى تحتج وتدافع وتناضل، وتوازن وتفاضل، وإذا بكتاب « النثر الفني » يضرب صفوف الكتب ويتقدم ويخرج صاحبه منه وهو مخاصر ليلى فيقول في خيلاء: « اختلفوا ما شئتم، فلن يستطيع العقاد أن يكون أحسن من الرافعي، ولا الرافعي أحسن من العقاد، إلا يوم أضع عن أحدهما كتابا مثل كتابي عن الشريف الرضي » . فقلت في نفسي: لا شك أن هؤلاء القوم لهم اتصال بشياطين الشعراء. إذن هذه فرصة ثمينة للسؤال عن شيطان أديب سلا المفقود[1]

فانحنيت على كتاب هادئ أضناه تعب الجدال، فسلمت عليه وأعدت له السلام وكررته وأسرفت في قولي « سيدي » و « مولاى » ، فصاح الكتاب في ضجر وقلق: دعني من هذه الزخارف وهذه الآداب الفارغة التي اصطلحتم عليها معشر البشر. فقلت: عفوا إن أسأت الأدب، ولم أهتد كيف أخاطبك، فأنا - عافاك الله - مريض. فقال: هذا عذر لا نعرفه نحن معشر الشياطين، فالأمراض لا تتسلط إلا على المادة. ثم قفز ولكم كتابا بجانبه لكمة عنيفة إذ سمع منه شرا، وعاد قريبا مني. فقلت: إن هذا المرض الذي أصابني - عافاك الله - لم يصب جسمي، وإلا لاسترشدت طبيبا وتداويت. فقال: إذن أنت مصاب في عقلك؟ فقلت: ولا هذا، وإلا لو كنت مصابا في عقلي لكنت الآن بين جدران سيدي ابن عاشر. أنا - عافاك الله - شاب غفل، وهذه شهادة الدبلوم والليسانس تشهد لي بهذا الخزي والعار! فانتزع مني الشهادات ومزقها وقال: أنا لا أعتبر الشهادات، فمن قال لك إنك غفل؟ قلت: « الثقافة » قال: « الثقافة؟ » فلنبجل الثقافة! الثقافة عندنا معشر الشياطين مقدسة، نحن جنود الثقافة والشعر والأدب، لا نعمل إلا لها ولم نوجد إلا لخدمتها، أينما

[1] يقصد بأديب سلا الشاعر عبد الرحمن حجي شقيق سعيد الأكبر.

وجدنا وجدت، وكلما فقدت فقدنا. هى نحن ونحن هى، غرسناها قديما باليونان فأينعت أوراقها، وتعهدناها بالشرق فأثمرت أغصانها، وها نحن ... فقلت: عفوا، ليست هذه الثقافة التي أعني، وإنما أعني أوراقا تطبع سماها صاحبها « الثقافة » فضحك ضحكة ارتجت لها أركان الغرفة وقال لي: عجبا لكم معشر البشر ما أكثر هذيانكم، اسمع! ليس لي وقت فارغ لهذا الهذيان، نحن شياطين الأدب العربي في هذه الأيام في معركة عنيفة، انقسمنا صفين، صفا مع صاحب العقاد، وصفا مع صاحب الرافعي، وإننا نتجلى كل ليلة في كتب العقاد والرافعي في أي خزانة كانت ونناظر ونحاج. فقلت: ما أسعد حظي بزيارتكم، فبالله عليك ألا أخبرتني عن شيطان أديب يبحث عنه جميع الشباب الغفل. فقال: ومن هو الأديب؟ فقلت: أبو زيد. فقال: ومن أبو زيد؟ قلت: الساكن بسلا. فقال: عجبا! يذكرني كلامك هذا بقول شاعر القرون الخوالي:

سألنا عن ثمالة كل حي ... وكلهم أجاب: ومن ثمالة؟

فقلت: محمد بن يزيد منهم ... فقالوا: الآن زدت بهم جهالة

فما هى سلا وأين هى؟ قلت: لو كنت تقرأ « الثقافة » لاطلعت على ما قاله فيها شاب غفل، ولعلمت أنها مدينة جميلة على البحر المحيطي، بها ضريح للعلامة ابن عاشر. فضحك مستهزئا وقال: العلامة ابن عاشر! ألا تعلم أن العلماء أعداء الشياطين، وأننا معشر الشياطين لا نألف إلا الشعراء والأدباء والفنانين. فقلت: أديب سلا هذا يدعي أنه شاعر، ولكن ... فقال: ولكن ما ذا؟ فقلت: من سوء حظه أنه منذ اتصل بالشباب الغفل في مهنة يتعاطاها، صار يدعي أن شيطانه فر منه، ونحن خدمة للأدب وإخلاصا للفن نبحث عنه. فقال: أمر هذا الشاعر غريب؛ وصار يردد: أبو زيد ... سلا ... فصاح شيطان من كتاب كان يسمعنا وقال: نعم، نعم، أنا أعرف أديبا بسلا؛ فتروى الشيطان قليلا وقال: الآن عرفته، هيا بنا إليه، فأخذ بيدي وطرنا إلى أن وصلنا إلى حي بسلا منعزل هادئ، ونزلنا على جدران مهدمة تحسبها أطلالا فتسربناها، فإذا ليس بها إلا صحن كله تراب،

وبوسطه رجل متين الجثة، أسمر اللون، مبيض الشعر، وعلى عينيه الضيقتين نظارتان، وبين يدى الشيخ كتب مفتوحة من جهة ديوان الشريف الرضي وصفي الدين الحلي، ومن جهة أخرى أضغاث أوراق بها قصائد الشعر الملحون لسيدي التهامي المدغري وغيره. فصحت قائلا: ليس هذا أديب سلا الذي نبحث عن شيطانه، فقال الشيطان: لا تزعج الشيخ الحكيم، فإنه عزيز عندنا إذ يحتفظ لأدب بلادكم بهذه الأوراق البالية الحاوية لأشعار الملحون التي هى أحسن ما أوحيناه لكم وخير تراث شعرائكم، وهو إلى ذلك فرع شجرة طيبة، ومراعاته علينا واجبة. قلت: ما كنت أظن أن هذا الشيخ المنعزل بهذه المكانة عندكم. قال: تبا لكم، أتظنون أن الشعر عندنا هو ذلك الكلام الموزون الذي يجمع شعراؤكم المعاصرون قوافيه من مختار الصحاح والمصباح، فلا ينطقون بما يشعرون، ولكن بما يسعه الوزن وتتحمله القافية؟ إن هذا الشعر الملحون الذي بين يديه وإن لم يحظ بالطبع على ورق صقيل، مزدان بالصور وخداع العناوين فهو وحى مردة الشياطين، ولكن ضاع رواؤه فيكم، فهجرتموه لضرير يتوسل به، أو دميم وجه يتكفف به أو منكر صوت يصيح به. ثم قال وقد خرجنا من خلوة الشيخ: أين منزل أديبك؟ قلت: قريب، وهو منزل أنيق تزينه خزانة تزخر بكتب اللغة وفقه اللغة والدواوين الشعرية وشروحها. فقال لي: ويحك! لو قلت لي هذا في البداية لاتضح الأمر. الآن، عرفت لماذا هجره أخونا شيطانه؛ إنه لم يهجره لأجل الشباب الغفل، وإنما هجره لأننا معشر الشياطين لا نجتمع وكتب اللغة في مكان واحد، نحن أعداء المقاييس والموازين، نحن نهوى من يصدع عفوا بما نوحي إليه من المعاني؛ إن المعاني التي ننزل بها على أصحابها هى فلذات أكبادنا، ويعز علينا أن نراها سجينة في قوالب النحو واللغة الضيقة الجافة.

وبينما نحن في هذا الحديث إذ لاحت لنا بناية واسعة الأرجاء، كثيرة النوافذ، حديثة العهد، فقال الشيطان: ما هذه البناية؟ قلت: هذه مدرسة (أى معمل من المعامل التي يصنع بها الشباب الغفل) ثم زدت قائلا: هل منكم من يعرف شبانا أغفالا، أم أنتم على

رأي صاحب « الثقافة » من أن الشباب الغفل لا صلة له بالأدب ولا صلة له بالشعر؟ فقال: معاذ الله! إن الشباب الغفل هم أبناؤنا وجنود من جنودنا وما أعزهم عندنا؛ أرسلناهم ليتمردوا ويثوروا ويهاجموا ويهدموا، فإذا قاموا بهذا الطور، طور التمرد والثورة والهجوم والهدم وجلسوا يرتاحون، جعلنا جزاءهم ما نكنز لهم من شعر وأدب وفن وفلسفة؛ أما الآن فالعصر عصر هدم، ولن تسمع قيثارة شاعر، بل لن تسمع إلا المعول الهدام. وما قطع علينا هذا الحديث في هذا الصبح الهادئ وهذا السكون السائد إلا وقع أقدام ، فصمتنا وسكتنا ننظر من أعلى الجدران وإذا بالمار هو صاحب « الثقافة » فقلت للشيطان: أتعرف من القادم، هو صاحب « الثقافة » . ثم سألته هلا تخبرني هل له شيطان عندكم ؟ فقال: شيطانه من الإنس لا من الجن ولكن لتعلمن نباه بعد حين، إن شيطان الإنس أشد بطشا وأقوى نكالا من شياطين الجن، ثم ويل لمن تآمرت عليه شياطين الإنس والجن!

اسر بهذا وجذبني قائلا: هيا بنا فقد آن للصبح أن ينفلق وآن لنا أن نختفى، فنحن أعداء النور ولا نهوى إلا الظلام. فما هى إلا لمحة بصر وإذا أنا في مكاني ممتد على مقعدي، فقال: وداعا. قلت: فهل لك أن تخبرني أى أديب أنت شيطانه؟ فقال: أتظن أنك تستطيع أن تعبث بالشياطين؟ واه لك! لقد صدق من قال إنك ...[1]

... شاب غفل - فاس

[1] صاحب المقال الذي لم يعلن عن اسمه هو الأستاذ أحمد بناني، أحد أعضاء أسرة المغرب الثقافي.